

التفسير المختصر - سورة آل عمران (٣١) - الدرس (٦-٢) : تفسير الآية ٣١ ، محبة الله عز وجل

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٤-٠٤-٠٤

### بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين والصلوة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين.  
ففي سورة آل عمران أيها الإخوة، آية تعد مقياساً لكل مؤمن؛ هذه الآية هي الآية الواحدة والثلاثون وهي قوله تعالى:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ ذُنُوبُكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾ (٣١)

قال العلماء: لما كثر مدّعو المحبة لله عز وجل جعل الله سبحانه دليلاً على صدق المحبة أو عدمه، آية في كتابه الكريم، فالمحبة شعورٌ داخلي يستطيع أن يدعّيها كل إنسان، ولو كان أبعد الناس عن الله عز وجل، يقول لك: أنا أحب الله، فاللهم يُدعّى، لكن الله سبحانه وتعالى طالب المؤمنين بالدليل، فحبك لله عز وجل له دليل، ودليله طاعة رسول الله:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ﴾

فالإنسان أيها الإخوة لئلا يقع في وهم مهلك، لئلا يتّوه أنه على حق وهو على باطل، لئلا يتّوه أنه محب وهو ليس بمحب، جعل الله هذه الآية دليلاً على محبتة للمؤمنين.

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ﴾

ويبدو أنَّ هذا المرض يصيب أهل الكتاب أيضاً.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحَبَّاؤُهُ﴾

(سورة المائدة: ١٨)

هذه دعوى.

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحَبَّاؤُهُ﴾

فرد الله عليهم:

﴿قُلْ فَلَمْ يُعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بِلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ خَلْقٍ﴾

(سورة المائدة: ١٨)

فلو أنَّ الله قبل دعواهم وأقرّهم على ادعائهم، لما عذبهم، وما دام يعذبهم فهم كاذبون في دعواهم، ومن هذه الآية الكريمة استبط الإمام الشافعي حقيقة ثابتة، وهي أنَّ الله سبحانه وتعالى لا يعذب أحبّيه، بل يبتليهم ويتحنّهم، ولكن لا تستقر حياتهم إلا على الإكرام.

وهذا محل الإشارة إلى أن حياة المؤمن تمر بأطوار ثلاثة؛ فتمر في طور يعالجها الله، ويؤديها إلى أن يحمله على طاعته، وهذا الطور الأول، يعالجه ويضيق عليه ويشدّ عليه ويؤديه بشتى الوسائل النفسية والمادية إلى أن يحمله على طاعته.

إِذَا هَذَا طُورُ التَّأْدِيبِ، فَإِذَا حَمَلَهُ عَلَى طَاعَتِهِ دَخَلَ فِي طُورٍ أَخْرِ؛ طُورُ الابْتِلَاءِ:  
﴿وَتَبَلُّوكُمْ بِالشَّرِّ وَالْخَيْرِ فِتْنَةً﴾

(سورة الأنبياء: ٣٥)

فَإِذَا نَجَحَ فِي الابْتِلَاءِ دَخَلَ فِي طُورٍ ثَالِثٍ؛ وَهُوَ التَّكْرِيمُ، لِذَلِكَ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى قَالُوا: نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَهْبَاؤُهُ، فَقَالَ تَعَالَى:

﴿قُلْ فَلَمْ يُعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ خَلْقٍ﴾

(سورة المائدah: ١٨)

فَإِذَا رَأَيْتَ أَنَّ الْمُسْلِمِينَ لَيْسُوا عَلَىٰ مَا يَتَمَنَّونَ، وَحَالُهُمْ لَا تُرْضِي، وَلَيْسُوا كَمَا قَالَ اللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ، فَلَمْ يُسْتَخِلُّوْا فِي الْأَرْضِ، وَلَمْ يَمْكُنْ اللَّهُ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَ لَهُمْ، وَلَمْ يَبْدُلُهُمْ بَعْدَ خَوْفِهِمُ أَمْنًا، هَذِهِ وَعْدَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الدِّينَ أَمْنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيُسْتَخْلَفُوهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا﴾

(سورة التور: ٥٥)

إِخْوَنَا الْكَرَامُ؛ أَيْ وَعْدٌ فِي الْقُرْآنِ الْكَرِيمِ، إِنْ رَأَيْتَهُ غَيْرَ مُحْقِقٍ، يَنْبَغِي أَنْ تَشَكُّ فِي الْطَّرْفِ الثَّانِي، لِأَنَّ اللَّهَ سَبَّحَهُ وَتَعَالَى قَالَ:

﴿وَمَنْ أَصْدَقُ مِنَ اللَّهِ حَدِيثًا﴾ (٨٧)

(سورة التور: ٨٧)

وَقَالَ:

﴿وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ﴾

(سورة التوبه: ١١١)

إِنَّ اللَّهَ وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ بِالنَّصْرِ فَقَالَ:

﴿إِنْ تَنْصُرُوا اللَّهَ يَنْصُرُكُمْ﴾

(سورة محمد: ٧)

وَقَالَ:

﴿إِنْ يَنْصُرُكُمُ اللَّهُ فَلَا غَالِبَ لَكُمْ﴾

(سورة آل عمران: ١٦٠)

وَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ يَدْافِعَ عَنْهُمْ فَقَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا﴾

(سورة الحج: ٣٨)

وَوَعَدَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْ لَنْ يَجْعَلَ لِلْكَافِرِينَ عَلَيْهِمْ سُلْطَانًا:

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١)

(سورة النساء: ١٤١)

هذه وعود خالق الكون، فإن رأيت وعود الله ليست محققة في عالم المسلمين، فماذا تظاهر؟  
أقول: إنَّ الله سبحانه وتعالى لا يفي بوعده؟ هذا كلام فيه كفر، حاشا الله عز وجل، يجب أن نشك في إيماننا، وفي طاعتة الله، وفي استقامتنا، إنَّ الله سبحانه وتعالى يقول في آيةٍ أخرى:

﴿مَا يَفْعُلُ اللَّهُ بِعَذَابِكُمْ إِنْ شَكَرْتُمْ وَأَمْتَنْتُمْ﴾

هؤلاء أهل الكتاب لو أنَّ الله أفرهم على دعواهم لـما عذبهم.

﴿قُلْ فَلَمْ يُعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بَلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ خَلْقٍ﴾

على كلِّ هناك نقطة دقيقة، الإنسان يحيا ضمن مجتمع، والمجتمع فاسد منحرف، يأكل الربا، يرتكب الفواحش، يقلد الغربيين، ولو دخلوا حجر ضبٍّ لدخلتموه، فإذا كان الإنسان في مجتمع منحرف، في مجتمع الدنيا كلها همٌّ ومبلغ علمه، في مجتمع لا يبالي أكل حراماً أم حلالاً، مجتمع لا يبالي أكان على منهج الله أم على منهج الشيطان، فإذا كان المؤمن في هذا المجتمع، واصطلاح مع الله وحده، واستقام إلى الله استقامةً تامة، فهل تظن أنَّ الله يعذبه مع المجموع.

قال تعالى:

﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨)

(سورة الأنبياء)

لا تنسوا هذه القصة التي أوردها القرآن الكريم، سيدنا يونس حينما كان في بطن الحوت، ما من مصيبةٍ أشد على الإنسان من أن يجد نفسه فجأةً في ظلمة بطن الحوت، وفي ظلمة البحر، وفي ظلمة الليل، في ظلماتٍ ثلات، الأمل في النجاة ضئيل، في بطن حوت وزنه مئة وخمسون طناً، والإنسان كله لقمة صغيرة، فاللقمه الحوت لقمة واحدة، والحوت كما تعلمون أيها الإخوة؛ حيوان ثديٌّ، يعني تُرضعُ أنثاه، كل رضعة ثلاثة كيلو، ثلاثة رضعات في اليوم تعني طناً، والحوت مئة وخمسون طناً كما بينا، وفيه تسعون برميلاً من الزيت يُعرف بزيت الحوت، وفيه خمسون طناً من اللحم، وخمسون طناً من الدهن، هذا الحوت إذا دخل إنسان إلى بطنه، فالوجبة المعتدلة وهي تسكيت لجوعه أربعةطنان، هذا هو الحوت إذاً، وقد وجد سيدنا يونس نفسه ببطن الحوت فجأةً، في ظلمة بطن الحوت وفي ظلمة الليل، وفي ظلمة البحر، أنت الآن، اركب بالبحر بين طرطوس وأرواد بالليل، تشعر بوحشة كبيرة، فإذا غرق الإنسان بالليل، ودخل في بطن الحوت:

﴿فَنَادَى فِي الظُّلُمَاتِ﴾

في ثلاثة ظلمات:

﴿أَنْ لَا إِلَهَ إِلَّا أَنْتَ سُبْحَانَكَ إِنِّي كُنْتُ مِنَ الظَّالِمِينَ﴾ (٨٧) فاستجبنا له ونجيأه من الغم

(سورة الأنبياء: ٨٧)

القصة انتهت، استمع إلى القانون بعدها، إنه القانون الإلهي الثابت أبداً، قال:

﴿وَكَذَلِكَ نُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨)

يعني أي مؤمن، وفي أي مكان، وزمان، بعد ألف سنة، بعد آلاف السنين، في آسيا أو إفريقيا، أو أمريكا أو ألاسكا، بالقطب الشمالي والجنوبي، في البحر، والجو، والبر، طائرة تحلق على ارتفاع ثلاثة وأربعين ألف قدم فوق جبال الألب، احترقت وانشطرت وسقطت، ومات جميع ركابها إلا راكباً واحداً، فقد كان مقعد هذا الراكب مكان انشطار الطائرة، فوقع، ونزل على غابة من الأرز مغطاة بخمسة أمتار من الثلوج، هذه الخمسة الأمتار امتصت الصدمة، كما امتصتها ليونة الأغصان أيضاً، فنزل واقفاً، وحيثما كنتَ؛ في الجو أو البحر أو البر أو برأس جبل.

﴿وَكَذَّلِكَ تُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨)

وكل إنسان يحاسب عن عمله، فإذا تبتَ توبَة عامة، فالفرج عام، وإذا تبتَ توبَة خاصة فالفرج خاص، والمؤمن له معاملة خاصة.

قال:

﴿قَالَ فَمَا حَطَبْتُكُمْ أَيْلَهَا الْمُرْسَلُونَ﴾ (٣١) ﴿قَالُوا إِنَا أُرْسِلْنَا إِلَى قَوْمٍ مُّجْرِمِينَ﴾ (٣٢) لِنُرْسِلَ عَلَيْهِمْ

﴿حِجَارَةً مِّنْ طِينٍ﴾ (٣٣) مُسَوَّمَةً عِنْدَ رَبِّكَ لِلْمُسْرِفِينَ﴾ (٣٤)

(سورة الذاريات: ٣١ - ٣٢ - ٣٣ - ٣٤)

ثم الآية التالية تقول:

﴿فَأَخْرَجْنَا مَنْ كَانَ فِيهَا مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٣٥) ﴿فَمَا وَجَدْنَا فِيهَا غَيْرَ بَيْتٍ مِّنَ الْمُسْلِمِينَ﴾ (٣٦)

(سورة الذاريات: ٣٥ - ٣٦)

يعني أنَ الله عز وجل قبلَ أن يدمرَ هذه البلدة، أخرج منها المؤمنين، فالمؤمن إذا صار في هدى جماعي، فهذا أنعم وأكرم، فيصير في فرج جماعي، وإذا لقيت الناس حولك غير مستقيمين فلا

نقل: أنا مثل هؤلاء الناس، هذا الذي نهى عنه النبي صلى الله عليه وسلم حينما قال:

﴿لَا تَكُونُوا إِمَّعَةً تَقُولُونَ إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسُ أَحْسَنَا وَإِنْ ظَلَمُوا ظَلَمْنَا وَلَكِنْ وَطَّنُوا أَنْفُسَكُمْ إِنَّ أَحْسَنَ النَّاسُ أَنْ تُحْسِنُوا وَإِنْ أَسَاعُوا فَلَا تَظْلِمُوا﴾

(رواه الترمذى عن حذيفة)

والقول الدارج الآن: أخي أنا مثل الناس، حط رأسك بين الرؤوس وقل يا قطاع الرؤوس، أهذه آية أم حديث؟ هي كلام فارغ، فالإنسان إذا استطاع أن يهدي من حوله، فهذا والله شيء جميل، وإذا استطاع فليصلح مع الله وحده، وله معاملة خاصة وحده.

﴿وَكَذَّلِكَ تُنْجِي الْمُؤْمِنِينَ﴾ (٨٨)

فهذه الآية مقياس دقيق:

﴿قُلْ إِنْ كُنْتُمْ تُحِبُّونَ اللَّهَ فَاتَّبِعُونِي يُحِبِّكُمُ اللَّهُ وَيَغْفِرُ لَكُمْ﴾

وقال تعالى:

﴿وَقَالَتِ الْيَهُودُ وَالنَّصَارَى نَحْنُ أَبْنَاءُ اللَّهِ وَأَحَبَّاؤُهُ قُلْ فَلَمْ يُعَذِّبْكُمْ بِذُنُوبِكُمْ بِلْ أَنْتُمْ بَشَرٌ مِّنْ خَلْقٍ﴾

تعامل مع الله مباشرةً، تعامل مع الله بصدق وإخلاص، وأقم أمر الله، يعزك الله:

كَنْ مَعَ اللَّهِ تَرَ اللَّهَ مَعَكُ وَ اتَّرَكَ الَّذِلِّ وَ حَادِي طَمَعَكُ  
وَإِذَا أَعْطَكَ مَنْ يَمْنَعُهُ ثُمَّ مَنْ يَعْطِي إِذَا مَا مَنَعَكُ

\*\*\*

أَطْعَمْ أَمْرَنَا نَرْفَعْ لِأَجْلَكَ حَجْبَنَا فَإِنَا مَنْحَنَا بِالرَّضْيِ مِنْ أَحْبَنَا  
وَلَذِ بِحَمَانَا وَ احْتَمِ بِجَنَابَنَا نَحْمَكَ مَا فِيهِ أَشْرَارُ خَلْقَنَا  
وَعَنْ ذَكْرَنَا لَا يَشْغَلُنَّكَ شَاغِلٌ وَأَخْلَصَ لَنَا تَلْقَيَ الْمُسْرَةِ وَالْهَنَاءِ  
وَ سَلَمَ إِلَيْنَا الْأَمْرُ فِي كُلِّ مَا يَكُنْ فَمَا الْقَرْبُ وَلِإِبْعَادِ إِلَى بِأَمْرِنَا  
يَنْدَى لَهُ بِالْكَوْنِ أَنَا نَحْبَنَا فَيَسْمَعُ مَنْ فِي الْكَوْنِ أَمْرُ مَحْبَنَا

\*\*\*

وَالَّذِي لَمْ يَذْقُ طَعْمَ الْقَرْبِ لَمْ يَذْقُ مِنَ الدُّنْيَا شَيئًا، قَالَ: بَعْضُ الْعَارِفِينَ مُسَاكِينُ أَهْلِ الدُّنْيَا، دَخَلُوا  
إِلَى الدُّنْيَا، وَخَرَجُوا مِنْهَا، وَلَمْ يَذْنُوْقُوا أَطْيَبَ مَا فِيهَا، إِنَّهَا سَاعَاتُ الْقَرْبِ مِنَ اللَّهِ، وَالثَّمَنُ كَامِنٌ  
بِنَفْسِ كُلِّ وَاحِدٍ مِنْكُمْ، الثَّمَنُ طَاعَةُ اللَّهِ، قَالَ اللَّهُ تَعَالَى:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١)

(سورة الأحزاب: ٧١)

رَاجَعُوا حِسَابَتِكُمْ، رَاجَعُوا حِسَابَاتِ قَيُودِكُمْ، بَيْوَتِكُمْ فِيهَا مُخَالَفَاتٍ، فِيهَا مَعَاصِيرٌ، حِسَابَاتِ  
أَعْمَالِكُمْ، حِسَابَاتِ جُوَارِحَكُمْ، هِيَ كُلُّهَا حِسَابَاتٍ، فَإِذَا أَقْمَتَ الْإِسْلَامَ فِي كِيَانِكَ، وَفِي بَيْتِكَ، وَفِي

عَمَلِكَ، غَيْرُ اللَّهِ نَمَطُ حَيَاتِكَ، فَاللَّهُ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ:

﴿مَنْ عَمِلَ صَالِحًا مِنْ ذَكَرٍ أَوْ أُنْثَى وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَلَنُحْيِيهِ حَيَاةً طَيِّبَةً﴾

وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ